(طي السماء كطي السجل للكتب)

ما أفهمه خلافا للمفسرين في معاني هذه الآيات مما يجعل مضمونها معجزة للقرآن وبشارة للمؤمنين بما سيحصل لهم في الدنيا.
قال تعالى في سورة الأنبياء (١٠٠-١٠٧) (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون يوم تطوى السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون أن في هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون).
أقول إن هذه الآيات بيان للانقلاب الذي حصل للعالم يوم ظهور الإسلام ويوم طي العالم القديم وتوريث الأرض لعباده الصالحين المسلمين الذين أقاموا العدل بين الناس أجمعين بتعاليم خاتم النبيين الذي أرسل رحمة للعالمين فقوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) المراد بهم الذين آمنوا بمحمد (ص) واتبعوا دين الإسلام ومشوا على تعاليمه وآدابه وطبقوا أعمالهم على شريعته وأحكامه فهؤلاء بسبب ذلك مبعدون عن جهنم العذاب والآلام ونار الشقاق والضلال وعن جهنم الشهوات النفسية المهلكة ونار الأهواء القلبية المحرقة.
وقوله (لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون) الحسيس هو كل ما يحس بإحدى الحواس الخمس أي لا يلتفتون إلى ما يحسونه منها ومن آلامها وهمومها وأكدارها بل كأنهم لا يسمعونه مجرد سماع مع أنه حاصل لديهم ومحسوس لهم وهم فيما اشتهت أنفسهم المؤمنة المطمئنة الراضية من التقرب إلى الله تعالى ولذة الوصول إليه خالدين طول حياتهم وصابرون على المكاره في جميع أوقاتهم كما قال تعالى في حقهم (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فالناس كلهم في الخسران والهوان وفي جهنم العذاب والآلام إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر الذين سبقت لهم من الله الحسنى فإنهم مبعدون عن ذلك بنفوسهم العالية الصابرة الراضية وقلوبهم المطمئنة الحازمة الماضية وإن أحسوا بشيء من ذلك.
وقوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) أي أن هؤلاء لا يحزنهم أي فزع عرض لهم حتى ولا الفزع الأكبر إذا نزل بهم وحل بديارهم لحسن صبرهم ورضائهم بما أراده الله لهم كما قال تعالى في حقهم (والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وقوله تعالى (وتتلقاهم الملائكة) أي ملائكة الرحمة والرضوان والصبر والسلوان وقوى التمسك بدين الرحمن كما قال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا).
وقوله (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) أي هذا اليوم الذي ظهر فيه الإسلام وسبقت فيه الحسنى لمن اتبع هذه التعاليم والأحكام هو يومكم الذي كنتم توعدون به على لسان الأنبياء السابقين والذي بشرت به وكتبت عنه زبر الأولين.
وقوله (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) إن كلمة يوم ظرف لقوله في الآية قبله (توعدون) أي توعدون بحصوله وظهوره يوم نطوي السماء. والسماء في اللغة هو كل ما ارتفع وعلا سواء كان ارتفاعا حسيا أو معنويا فسماء الفضل وسماء العلم وسماء الحكمة وسماء الدين هو سماء في اللغة أيضا والمراد به هنا الدين بدليل الآيات التي قبلها والتي بعدها كقوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقوله (قل إنما يوحى إلي أنما إلهم إله واحد فهل أنتم مسلمون) وغير ذلك من الآيات أي إنما نطوي سماء الدين السابق ونطوي تعاليمه وأحكامه كطي السجل للأمور المكتوبة فيه حيث تختفي وتكون في (خبر كان) كما بدأنا أول خلق من العدم نعيده إلى العدم أيضا وقد فعلنا ذلك في السماء السابقة كما وعدنا في الكتب الأولى من إظهار دين آخر في آخر الزمان يرث سائر الأديان ولذلك قال بعدها (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحين) الزبور اسم لكل كتاب لأنه مأخوذ من الزبر أي الكتاب أي ولقد كتبنا في الزبر الأولى إن الأرض يرثها عبادي الصالحون هم أتباع محمد المسلمون بدليل قوله بعد (وما أرسلناك إلى رحمة للعالمين) وقوله (قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) فتلك الآية إنما هي بشارة للمسلمين إتباع خاتم النبيين بما سيحصل لهم من الملك الجسيم الذي لم يسبق لأحد من أمم الأرض أجمعين بسبب كثرة عدلهم وحسن إدارتهم وشدة عزمهم وجراءتهم وصبرهم وكثرة نشاطهم وصلاحيتهم لإرث الأرض بسبب ذلك، وقد حصلت هذه البشارة فعلا أيام العصر الذهبي للإسلام فإن المسلمين قد ملكوا كل الأرض ما عدا فسما صغيرا من بلاد فرنسا كما هو معروف وثابت في التاريخ وهذا من أعظم معجزات القرآن حيث حصل ما أخبر عنه بالتمام.
وسينتهي أمر الإسلام إلى ذلك أيضا في آخر الزمان حيث أنه دين العقل والفطرة والوجدان هذا ما أراه ففي تفسير هذه الآيات وقد يكون هذا التفسير أولى من تفسير المفسرين حيث أنه على تفسيرنا تكون هذه الآيات حجة ظاهرة ومعجزة من القرآن باهرة قد حصلت بالفعل في الدنيا.

(فهم آخر لنا في معنى هذه الآيات)

وإنني الآن أفهم فهما آخر في معنى هذه الآيات وهو أن المراد من الفزع الأكبر هو حرب القنابل الذرية والإيدروجينية لأن فزعهم أكبر من كل فزع مضى حيث يمكن بها إهلاك أكثر الناس وتدمير معظم الأرض في أيام قلائل بل ساعات، ولكن الذي سبقت لهم من الله الحسنى فأبعدهم عن التدخل في هذه الحرب أو كانت بلادهم بعيدة عنها فهؤلاء لا يسمعون حسيسها أي حسيس نار هذه الحرب أي لا يحسون بها ولا يسمعون صوت مدافعها ولا دوي قنابلها لبعدها عنهم ولتلقي ملائكة رحمة الله وإحسانه وإنعامه عليهم بإنقاذهم منها وعدم إحساسهم بآلامها مصائبها وتعبير الآية هنا عن عدم الإحساس بالمصائب والويلات (بعدم سماعها) هو مثل تعبير آيات أخرى عن الموت والجوع والبرد واليأس والعذاب والوبال بلفظ (الذوق) كقوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت) (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) (ولا يذوقون فيها بردا) (حتى ذاقوا بأسنا) (ليذوقوا العذاب) (فذاقت وبال أمرها) إلى غير ذلك من الآيات التي تعبر مجازا عن الشيء بما يلابسه والمعنى انه في اليوم الذي يطوى فيه سماء العدل والرحمة من بين الناس يكون الفزع الأكبر والحرب الأعظم الذي لا ينجوا منه إلا من سبقت لهم من الله الحسنى وإنه في هذا اليوم يكون الله قد أعاد الإنسان كما بدأه أولا حيوانا وحشيا ضاريا يأكل القوي منه الضعيف ويهلك المسلح فيها الأعزل من السلاح كما هو حاصل الآن في حروب هذه القنابل الذرية الفتاكة بكل من يقرب منها. ولكن الله تعالى قد بشرنا بأنه بعد هذه الحروب الطاغية الظالمة المهلكة لابد وأن يورث الأرض لأناس صالحين من عبادة حيث قال بعد آية الفزع الأكبر (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) أي الصالحون لإقامة العدل في الأرض، ومما يدل على أن المراد من الفزع في هذه الآية هو فزع الدنيا تأخر ذكر توريث الأرض للصالحين الحاصل في الدنيا بعد ذكر الفزع الأكبر في الآية مما يفيد أن هذا الفزع حاصل في الدنيا وليس المراد به فزع يوم القيامة كما يقول المفسرون فلو كان المراد به ذلك لما كان هناك معنى لتوريث الأرض بعد خرابها وبعد موت الناس وقيام القيامة. ومما يدل على ذلك أيضا قوله تعالى قبل هذه الآيات (واقترب الوعد الحق) فإنه يبين المراد من قوله (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) بأن ما وعدوا به يكون قريبا أي حاصلا في الدنيا وبالجملة فإن هذه الآيات تنطبق على حروب القنابل الحاضرة والمستقبلة الحاصلة في الدنيا وإنها بانطباقها على ذلك تكون معجزة للقرآن ولمحمد عليه الصلاة والسلام حيث أخبره بما حصل الآن فعلا وشوهد عيانا وهذا لا يمنع انطباقها على ما سوف يحصل يوم القيامة أيضا وقد فصلنا هذا الموضوع تفصيلا تاما ووضحناه بما لا مزيد عليه في بحث (تنبؤات محمد عن المخترعات الحديثة) التي وجدت في هذا العصر فراجعه إن شئت.

ما قال المفسرون في معاني هذه الآيات
(مما يجعلها مشكلة ركيكة غير متلائمة)

إن المفسرين بالنظر لكونهم قد جعلوا حصول مضمون هذه الآيات متأخرا إلى يوم القيامة بعد موت العالم كله وفنائه فإنهم قد جردوا هذه الآيات من أن تكون حجة منظورة ظاهرة ومعجزة مشاهدة باهرة حيث أنه فسروا الأرض في قوله (إن الأرض يرثها عبادي الصالحون) بأرض الجنة يوم القيامة وفسروا طي السماء بتقويض جرمه يوم القيامة وفسروا الوعد في قوله (وعدا علينا) بوعد الآخرة وفسروا الفزع الأكبر بالموت أو بأهوال يوم القيامة وفسروا قوله (هذا يومكم) بيوم القيامة أيضا مع أنه لم يأت هذا اليوم حتى يشار إليه بلفظ (هذا) الذي يدل على أنه حاضر أمامهم وهكذا فإنهم جعلوا كل معنى لم يكن معروفا ولا مفهوما حسب ظاهر لفظه متأخرا إلى يوم القيامة حتى أصبحت هذه الآيات حسب تفسيرهم مثقله بالاعتراضات والانتقادات مملوءة بالإشكالات والمحاولات التي لم يقدروا على حلها ولا على الإجابة عليها ومن لم يصدق ذلك فليراجع تفاسيرهم ولولا خشية الإطالة لذكرت شيئا من الإشكالات التي وردت على هذه الآيات حسب تفسيرهم وما ذلك كله إلا لكونهم قد حرموا القرآن من التعبير بالمجازات والاستعارات والتشبيهات والتمثيلات التي هي ابلغ من الحقيقة وأفصح منها بعدة درجات سامحهم الله على ما فعلوا بهذا القرآن الحكيم.

(ما قاله المفسرون في المراد من الصالحين الذين يرثون الأرض
وما أقول في ذلك)

إن بعض المفسرين قد فسروا الأرض في هذه الآيات بأرض الدنيا واختلفوا في معنى الصالحين الذين يرثونها فقال بعضهم هم أهل الصلاة والتقوى والعبادة ومع أن هؤلاء لا يلتفتون إلى الدنيا ولما فيها ومع أنهم لم يرثوا ولم يملكوا من الأرض معشار عشر أهل الفسق والفساد. وقال بعضهم المراد من الصالحين أي الصالحين لزراعة الأرض وحرثها وبذرها. مع أن هؤلاء أيضا لم يرثوا ولم يملكوا من الأرض معشار عشر المتنفذين والأغنياء والمترفين الذين لا يعرفون الحرث والزراعة ولا يقدرون عليها.

وأنا أقول أن المراد من الصالحين الذين يرثون الأرض هم ما أشرنا إليهم سابقا من أنهم هم الصالحون لإدارة الملك العادلون في الرعية أرباب الجرأة والإقدام والهمم وأصحاب النشاط والحزم والعزم وذوا النفوس العالية الطاهرة الراضية وذوا القلوب المطمئنة الحازمة الماضية وهم المسلمون في عصرهم الذهبي وأن هذه الآية بشارة لهم بما سينعمه الله عليهم بما وعدهم به بقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) ويؤيد هذا المعنى قولهم في المثل السائر (العدل إن دام عمر والظلم إن دام دمر) ثم إن هؤلاء المفسرين الذين فسروا الأرض بأرض الدنيا في هذه الآيات لم يطردوا على وتيرة واحدة في تفسيرهم لبقية هذه الآيات بأن يجعلوها متعلقة بالدنيا أيضا حتى تكون جميع هذه الآيات على وتيرة واحدة بمعنى واحد ومتلائمة بعضها مع بعض كما فسرنا؛ بل رجعوا وقالوا إن طي السماء وإيفاء الوعد والفزع الأكبر (ويومهم هذا) كله متأخر إلى ما بعد الموت وبهذا أصبحت هذه الآيات متفككة بعضها من بعض وغير متلائمة في المعنى ولا متوافقة في الغرض والمقصد على مقتضى تفاسيرهم هذه، وعلى كل فالله أعلم بمراده.